الفصل الثالث : الأدب السياسي

كان زكي مبارك في بداية حياته عضوًا في الحزب الوطني الذي كان يرأسه المغفور له محمد بك فريد ... وقد نظم قصيدة ونشرها على صفحات جريدة الأفكار التي كان يشرف عليها عبد اللطيف بك الصوفاني وكيل الحزب الوطني، وذلك حين رحل محمد فريد إلى عالم البقاء، وكانت تحت عنوان: «دمعة على رئيس الحزب الوطني المغفور له محمد بك فريد» وفي نوفمبر سنة ١٩١٩ حيث قال:

سلوا برلين عمن حلَّ فيها ... يفتِّتُ كِبْدهُ المرضُ العنيدُ
مضى يستوهبُ الأيام عمرًا ... تتم به المساعي والجهود
فلم يذهبْ بعلَّتِهِ طبيبٌ ... ولم يُكتب له عمرٌ جديدُ
وخرَّ على السرير وحبُّ مصرٍ ... على تبريح علَّته يزيد
فما ضمن البقاء له صديقٌ ... ينادي: لا عدمتكَ يا فريد

***

فيا لهفي عليك وأنت كهلٌ غريبٌ عن أحبته بعيدُ
تموت فلا ترى مثواك أمٌ ولا أختٌ ولا زوجٌ ودودُ
ولا يروي ثراك أخٌ شقيقٌ بدمعتهِ ولا طفلٌ وليد

***

فلا يشمتْ بمنعاك الأعادي ولا يفرح ببلواك الحسودُ
فتلك بليةٌ لم ينجُ منها على إشراق عزته الرشيد
ومن يك مثلنا حسبًا ومجدًا تُشجِّعهُ الصواعق والرعود
فإن يك سرَّهم منعي فريدٍ فكل غضنفرٍ منا فَريدُ

***

ويقول: إنه بدأ يكتب في جريدة الأفكار منذ سنة ١٩١٤.

ولقد شارك في الثورة المصرية عام ١٩١٩ ومن أشعاره فيها:

يقولون عام روعتنا خطوبه وسالت به منا الدماء الدوافق
فقلت لهم لا تتبعوه ملامة فقد بعثت فيه الأماني الصوادق

وكتب الكثير عن الاستعمار، وكان يخطب في المساجد والكنائس باللغتين العربية والفرنسية... وكانت السلطة الإنجليزية تبحث عنه لاعتقاله، فكان يبيت في الجامع الأزهر أثناء اشتعال الثورة، ولا يدخل غرفته في حي الغورية في الليل[1]، وقد حاصرها الإنجليز عدة مرات فلم

(١) من كتاب الهلال للأديب العربي المصري محمد محمود رضوان بعنوان: «صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك» ١٩٧٤ صفحة ٣٣.

يجدوه، وقضى ثلاثة أشهر طريدًا لا يعرف أين يبيت، وكان مأواه غرفة فوق سطح بيت في السبتية بحي القللي يقيم فيها عند أحد أصدقائه الشبان من سنتريس منوفية وهو أنيس ميخائيل، وفي إحدى الليالي مضى إلى المنزل وأوقد مصباحًا فاستهوته القراءة وهو يجهل ما سيقع، فقد طرق الباب طارق يقول: افتح الباب يا أستاذ... وكان الطارق مأمور قسم الدرب الأحمر ومعه خمسة عشر جنديًا، وكان ذلك المأمور هو المرحوم الشيخ محمد فرج، وكان هواه -وكما يقول زكي مبارك- مع الثورة، فلم يعتقل أحدًا من الثائرين إلا وهو راغم، فقد كانت أمور الحكومة إلى السلطة العسكرية.

يقول على صفحات ديوانه الثاني «ألحان الخلود» صفحة ٢٧: إنه تمرد على الظلم كما تمرد أجداده، وكان أوحد خطباء الثورة المصرية عام ١٩١٩، فاعتقله الإنجليز وصيروه «أسير حرب».

ثم يقول: «إن أيام الاعتقال أورثته أحزانًا كثيرة». ولكنه استفاد من أيام الاعتقال؛ لأنه عرف معنى الاغتراب في الحياة؛ وهو معنى جميل.

وعلى صفحة ١٨٨ في كتاب «ألحان الخلود» أيضًا يقول: «وقد أرسلت وزارة الداخلية مفتشًا اسمه محمد فتحي ليأخذ تعهدًا من كل معتقل بأن لا يشتغل بالسياسة، فرآها المعتقلون فرصة للخروج عساهم يجدون للجهاد ميدانًا أرحب من ميدان الاعتقال.

أما أنا فرفضت إمضاء التعهد بصورة حاسمة وقلت: إنني وطني لا سياسي، ولن أخرج إلا يوم يرى هؤلاء الجنود أنه لا فائدة من حراسة رجل وحيد».

وبعد خروجه من المعتقل داوم على الكتابة في جريدة الأفكار؛ وفي سنة ١٩٢١ كان رئيسًا لتحرير جريدة الأفكار.

يقول الدارس محمد جاد البنا في رسالته لنيل درجة الماجستير تحت إشراف الدكتور محمد رجب البيومي سنة ١٩٨٤ في كلية الآداب جامعة الأزهر فرع المنصورة، وكان موضوعها «المعارك الأدبية بين زكي مبارك ومعاصريه» يقول: «تولى الدكتور زكي مبارك رئاسة تحرير مجلة الرسالة إبان هروب الأستاذ أحمد حسن الزيات -صاحب الرسالة- إلى مزرعته في ريف المنصورة خوفًا من آثار الحرب العالمية الثانية على القاهرة».

ويرى أن الأدب السياسي فنٌّ جديد في اللغة العربية... ويرى أن المجلات الأدبية تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكمة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلات يريحها كثيرًا -أو قليلًا- من شيوع الأكاذيب والأراجيف، ولذلك يرى زكي مبارك أن على الحكومة إعانة المجلات الأدبية.

ويقول على صفحات جريدة البلاغ في العشرين من أغسطس عام ١٩٤٦: «إن من يكتبون في الشئون السياسية يكتبون في شئون تأخذ وقودها من المشكلات اليومية، أما الأدب فوصوله إلى القادة أصعب من الصعب؛ لأن الدراسات الأدبية والفلسفية تستوجب مراجعات كثيرة، وتستوجب أن تكون في لغة يفهمها قراء.

جريدة يومية لها جماهير فيهم العالم والمتعلم، والطالب والأستاذ والمتفلسف والفيلسوف»

وإذا كانت الحياة هي كتاب الأديب -كما يقول زكي مبارك- فإنه يرى أهمية الجلوس في القهوات، وفي ذلك يقول على صفحات جريدة البلاغ في الثلاثين من يوليو عام ١٩٥٠ تحت عنوان «مشكلة المشكلات»:

«المشاهير من الرجال يكثر حولهم القيل والقال بحق وبغير حق؛ لأنهم عرضة لأنظار أهل الفضول. وأنا تعرضت لمتاعب كثيرة من هذا النوع، ولم ينفعني إلا شيء واحد وهو أنني لا أعمل شيئًا في الخفاء، فمن الوجهة السياسية لا يوجد ضدي حرف مكتوب في وزارة الداخلية؛ لأني لا أستبيح الكلام في السياسة إلا في حدود ما يمكن نشره في جريدة يومية، وما لا أملك نشره لا أتحدث عنه في المجالس الخصوصية.

وإني أوصي من يرى شيئًا لا يرضيه من أعمال الحكومة أن يرسل به تقريرًا إلى الوزير المختص باسمه الصريح، وكذلك حالي من الوجهة الدينية، فما أتحدث إلا بما يمكن نشره في جريدة يومية.

ولكن هناك مشكلة وهي الجلوس في القهوات لدراسة المجتمع، والعرف يرى أن هذا شيء غير مقبول، وأنا أرى غير ذلك، إن الاتصال بالناس يفتح أفاقًا من معرفة أحوال الناس.

وأنا أسمع أن خلائق تنتابني فأتذكر حكاية إبراهيم لنكولن محرر أمريكا، فقد رأى ترقية قائد ينتصر في جميع المواقع، ولكن القواد اعترضوا بأنه يكثر من شرب الخمر، فقال لنكولن:

«اذكروا اسم الشراب الذي يشربه لأقدم منه هدايا إلى جميع الجنود».

وفي ظلال هذا الخيال نظمت القصيدة التالية[١]:

تولت أراجيف من يخلقون ذنوبًا لكل كريم الخصال
لقد قتل الحق ما يأفكون حياة الأكاذيب أمر محال

وأنا حين أجلس في القهوة أتذكر السيد جمال الدين الأفغاني حين أقام في مصر، فلقد كان يجلس في قهوة بميدان العتبة الخضراء اسمها قهوة «الشرق»، وقد لامه الناس على ذلك فقال: من حق الفيلسوف أن يجلس حيث يشاء ليدرس المجتمع.

سنة ١٩١٩ شبت الثورة المصرية... ولما شبت الثورة المصرية فكر الإنجليز في حمل الرئيس ولسون على أن يصرح بأن مصير مصر موقوف على مفاضات ودية بين مصر وإنجلترا، وكان لذلك التصريح أثر سيئ في مصر، ثم جاءت الأخبار بأن ولسون مريض، فنشر الشاعر هذه الأبيات في جريدة الأفكار في يناير ١٩١٩:

لعمري لئن أمسيت بالسقم ساهرًا تخال الفراش الغَضَّ من وهج
فقد أسهرت يمناك بالأمس أمةً رأت غبنها فيما قضيت من الأمر
قمت خير محمود وإن شئت خليف الضنى بين المهانة والثبر

وبعد أشهر أشيع أن الإنجليز رشوا ولسون وزوجته بهدايا مختلفة، ولقيت زوجته عنتًا من عمال الجمارك عند عودتها، فنشر الشاعر هذه الأبيات:

إن الهدايا التي راعتك قد ضمنتْ ذهاب عقلك لما غرك الذهبُ

---

(١) القصيدة بكاملها في ديوان «قصائد لها تاريخ» طبع دار الشعب.

سِيقتْ إليك فلم يَخرجْ بها شرفٌ يـذودُ عنـك ولا ديـن ولا حـسبُ
عهـدي بقومـك لا يرضـون عـن أجـلُ مـا يبتغيـه المـالُ والنـشب
فَـالْقَ العقـاب علـى مـا نلـت مـن تـشكو الجمـارك بلواهـا وتنتحـب

وشاع بعد ذلك أن الرئيس ولسون يحتضر، فنظم الشاعر عشرة أبيات وقدمها إلى الجريدة؛ ولكن اتفق أن ذهب وزير أمريكا المفوض إلى وزارة الداخلية فاحتج على هذا الشعر، واضطر المغفور له عبد اللطيف بك الصوفاني أن يتعهد بألا ينشر شيئًا من شعر زكي مبارك عن الرئيس ولسون، وسحبت الأبيات العشرة من المطبعة، ولم يحتفظ الشاعر بأصلها فضاعت.

والآن مع بعض مقالات زكي مبارك في عالم السياسة:

***

خطاب العرش من الوجهة الأدبية

أخي الأستاذ الزيات!

أحب أن يتسع صدر «الرسالة» لموضوع لم يكتب فيه الباحثون من قبلُ: وهو نقد خطاب العرش من الوجهة الأدبية.

وأسارع فأذكر القراء بأن هذا الموضوع لا يحتاج إلى تحفظ واحتراس؛ لأن خطاب العرش ليس من إنشاء جلالة الملك، وإن كان يلقى باسمه الكريم، وإنما هو من إنشاء رئيس الوزراء، وهو الذي يحاسب عليه أمام الشيوخ والنواب، بآية ما نشهد من تأليف اللجان البرلمانية للرد عليه، في حدود قد تصل أحيانًا إلى الصرامة والعنف، وقد تعرض الوزراء إلى تعديل بعض النصوص أو تستقيل.

ولعل هذا هو السر في أن جلالة الملك لا يُلقي خطاب العرش بنفسه كما يصنع حين يتفضل بتوجيه الرأي والتحية إلى شعبه في فواتح الأعوام وفي المواسم والأعياد.

وخطاب العرش في التاريخ الحديث يشبه «العهود» التي كانت تُكتب بأسماء الخلفاء في التاريخ القديم، ونحن نعرف أن كتاب «العهود» كانوا يُسألون عما يقع فيها من خطأ أو إسراف؛ لأنه كان مفهومًا أن الخلفاء لا يكتبون بأنفسهم تلك العهود، ولذلك تفاصيل يضيق عنها هذا المقال، وهي معروفة لجميع المطلعين على تاريخ الحضارة الإسلامية.

إنَّ خطاب العرش من إنشاء رئيس الوزراء، ولكنه يُلقى باسم جلالة الملك: فمن الواجب أن يكون صورة رائعة من الوثائق الأدبية التي تمثل عظمة مصر لهذا العهد، فهل كان كذلك؟

إن صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا من رجال مصر المعدودين وهو في أنفس خصومه أهل للتبجيل، فمن حقنا عليه ونحن نؤمن بكفايته الذاتية أن نطمع في أن يمنح خطاب العرش عناية خاصة من الوجهة الأدبية؛ ليكون في نسق مع مطامحه العالية في خدمة البلاد، وليكون في طراز مع الخطب الجيدة التي كان يلقيها يوم كان وزيرًا للمعارف في سنة ١٩٢٥.

وقد يمكن الاعتذار عن خطاب العرش بأنه خلاصة لآراء تصل إلى الرياسة عن مختلف الوزارات، ولكن تنوع المصادر التي تؤلف خطاب العرش لا يُعفى الرئيس من إنشائه بطريقة مُحكمة تضعه في الصف الأول بين الوثائق الأدبية التي يعتز بها العهد الجديد: عهد فاروق بن فؤاد.

ولكن ما هي المآخذ التي تُوجه إلى خطاب العرش من الوجهة الأدبية؟

نلاحظ أولًا أن فيه عبارات لا تقال في وثيقة رسمية كالعبارة الآتية:

«قد آن لنا أن نعمل وأن نلبي داعي الوطنية والإيمان، داعي الرجولة والتضحية والكفاح».

لأن الحكومة الجديدة ليست أول من يعمل حتى يشهد لها بذلك، وإنما عملها حلقةٌ من سلسلة كونتها الحكومات المصرية من قبل، وقد

شهد رفعة الرئيس بأن فيمن سبقوه رجالًا كانت لهم وطنية وتضحية وإيمان.

وكذلك نقرأ في خطاب العرش:

«وقد فطن جدي الأعلى محمد علي الكبير إلى الصلة المتينة التي تربط الجيش الوطني القومي بفروع الإصلاحات والإدارة العامة؛ فما كاد المصري يظهر في الوجود حتى ظهرت في البلاد إدارة منظمة ومصانع ومعامل ومدارس لا عداد لها».

وليس هناك شك في أن المغفور له محمد علي الكبير نهض بمصر نهضة عظيمة، ولكن لا يقال: إنَّ عهد محمد علي كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود، فإن معنى ذلك أن مصر لم تكن أمة مهيبة قبل أن تعرف محمد علي الكبير. والرأي الصحيح أن مصر كانت أمة لها وجود أدبي واجتماعي وسياسي، فلما جاء محمد علي عملت يداه في تنظيم ما كان في مصر من قوة أدبية ومعنوية، فكان لها المكان الذي عرفته الأمم في التاريخ الحديث... كان محمد علي الكبير تركيًا، وكان يسره بالطبع أن تكون لغة مصر هي التركية، ولكنه رأي بثاقب الفكر المبدع أن اللغة العربية من أقوى مظاهر القومية المصرية، فساعد على تقوية اللغة العربية ليتأصل حبه في القلوب المصرية، ومن كان هذا حاله لا يقال إن عهده كان أول عهد لظهور الجيش المصري في الوجود.

وفي خطاب العرش أن مصر لذلك العهد ظهرت فيها مصانع ومعامل ومدارس لا عِدَاد لها، وجملة «لا عداد لها» جملة يراد بها التفخيم،

ولكنها لا تُقبل في وثيقة مثل خطاب العرش؛ لأن هذا مقام يفضل فيه القصد على الإغراق.

وماذا يريد الخطاب من العبارة الآتية:

«مصر مهد المدنية، وعلى يديها نهضت، ومنها خرجت وإليها تعود».

أيكون معنى ذلك أن المدنية خرجت من مصر إلى معاد؟

أيكون معناه أن المدنية يوم تعود إلى مصر ستفارق ما سواها من الممالك والشعوب؟

ويقول خطاب العرش:

«إن التفاتنا إلى الماضي لا ينسينا الحاضر، والذكرى تبعث الذكرى».

فما معنى عبارة: «والذكرى تبعث الذكرى»؟ أيكون الحاضر أيضًا من الذكريات؟

ويقول خطاب العرش:

«ومما تطيب له النفس أن الأمة متعلقة بعرشها».

فهل يظن أن هذا مما ينص عليه؟

إن تعلق الأمة بالعرش لا يحتاج إلى هذا النص؛ لأنه من البدهيات، ولأنه ليس من موضوع الخطاب.

ويقول:

«كان لا بد من السير بسفينة البلاد في يقظة وأمن وحذر».

فما موقع كلمة «الأمن» بين اليقظة والحذر؟ لعله كان يريد كلمة: «الإيمان» أو «العزيمة» أو «الثقة» ولم يسعفه التعبير بما يريد.

ويقول بعد أن أشار إلى وجوب العناية بإصلاح جميع المرافق:

«فلا يجدي والحالة هذه أن نعدد برامج الإصلاح في الوزارات القائمة».

فما معنى «الوزارات القائمة»؟ وبأي حق يكون تعدد برامج الإصلاح شيئًا «لا يجدي»؟

إن خطاب العرش يريد أن يقول: إن المقام مقام إجمال لا مقام تفصيل، ثم ضاقت به العبارة عما يريد، فرأى تعديد برامج الإصلاح من الفضول!

ويقول في إعادة إنشاء المجلس الأعلى للتعليم: إن الغاية منه أن «تتحقق مصلحة البلاد العليا التي يجب أن تعلو على كل مصلحة أخرى».

فما موقع كلمة «كل مصلحة أخرى»؟ وما الموجب للنص عليها في هذا الخطاب؟

ويقول:

«وإن حرصنا على الدفاع عن أرض البلاد واستقلالها لا يحده حد ولا يدركه وهن».

وعبارة «لا يدركه وهن» لا تخلو من وهن!

ويقول:

«إن تعاوننا مع حليفتنا سيكون أكبر رائد لنا في العمل».

ونحن حلفاء الإنجليز، ولكن لا ينبغي أن نقول: إن ذلك التحالف أكبر رائد لنا في العمل؛ لأن لنا إرادة ذاتية هي رائدنا الأكبر في السلم والحرب.

***

بقيت مسألة على جانب من الأهمية، وهي سكوت خطاب العرش عن الحياة الأدبية في هذه البلاد.

العمال موضع اهتمام، والفلاحون موضع اهتمام، والجنود موضع اهتمام، كل شيء في مصر موضع اهتمام في خطاب العرش إلا الأدب والأدباء، فكيف جاز ذلك، أيها الناس؟

إن خطاب العرش يتمدح بما وصلنا إليه في توثيق الروابط الأدبية والثقافية بيننا وبين الأمم الشرقية.

فهل يذكر خطاب العرش أن أدباء مصر هم الذين رفعوا القواعد من تلك الروابط؟

وهل يرى الشرق مصر إلا في مرآة الآداب والفنون؟

إن الأدباء هم سفراء الثقافة المصرية في الشرق، فكيف يكثر على منشئ خطاب العرش أن يشير إليهم بكلمة تشجيع وهو يتحدث عن صلات مصر بأمم الشرق؟

إننا نعتب على رؤساء الحكومات المصرية أشد العتب، فلكل هيئة من الهيئات حظ من الرعاية والتشجيع، إلا جماعات الأدباء والباحثين الذين يقذون أبصارهم تحت أضواء المصابيح، فهم وحدهم المنسيون، مع أنهم يحملون أكثر الأعباء، ويؤدون للأمة وللدولة أعظم الخدمات، وبأعمالهم تظهر خصائص الشعوب.

أين حظ الأدباء من ألقاب التشريف ودعوات التشريف في المواسم والأعياد؟ وأين الوزير الذي يقترح رتبة لموظف أو غير موظف باسم المواهب الأدبية؟ بل أين من يعرف أن أدباء مصر رفعوا للغة العربية مكانًا عليًا لم تعرف مثله في عهد بني أمية وعصر بني العباس؟

إننا نرفع هذا الصوت إلى حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول، راجين أن يضع سُنَّة جديدة في تشجيع الأدب والأدباء.

***

الحديث ذو شجون[1]

بعض ما علمتني الأيام:

تلقيت عن الأيام دروسًا تفوق العد والإحصاء، وإن كنت قليل الانتفاع بتلك الدروس... وهل ينتفع جميع الناس بما يتعلمون؟ لو كان ذلك لصرتُ أحكم الحكماء، فلي من الدهر في كل يوم درسٌ جديد، مع الوعي الصحيح لما أسمع من دروس الزمان.

ولكني مع ذلك انتفعت بدرس واحد، وأحب أن ينتفع به قُرائي، فما هذا الدرس؟

هو الخوف الشديد من أحاديث المجالس، فأنا لا أتكلم أبدًا في الشئون الدينية أو السياسية أو الاجتماعية حين أقابل الناس أو حين أزور الأندية في بعض الأحايين؛ لأني أعرف أن التزُّيد والتحريف صارا من عيوب بني آدم في هذه الأيام، ولا يجوز ائتمان مخلوقات هذا العصر على مكنون الأفكار والآراء؛ لأن حظهم من صدق الرواية صار غاية في الغثاثة والهزال.

وذلك هو السر في إقلالي من غشيان الأندية والاتصال بالناس، حتى جاز اتهامي بالنفرة من بني آدم وإيثار العزلة والانفراد؛ مع أني في حقيقة الأمر رجلٌ ألوف، ولا أختار العزلة إلا طلبًا للسلامة من التزيد والافتراء.

---

(١) مجلة الرسالة: ١٩٤١/٨/٤.

فما العبرة من هذا الدرس؟ وما الذي أنصح به قرائي؟

أنا أرى أن نخاطب الناس عن طريق الجرائد المجلات، أو عن طريق المؤلفات، فلا نعلن رأيًا إلا وهو نص مكتوب يعجز عن تحريفه المفترون، وإلا فمن حق كل مخلوق أن يتزيد علينا كيف شاء.

إنَّ النصوص المكتوبة لا تسلم من تحريف المغرضين، فكيف يسلم الكلام المرسل في أحد المجالس وفيها أوشاب لا تعيش إلا من الإفك والإرجاف؟

إنَّ التحريف الذي ابتليت به آرائي المدونة في مقالاتي ومؤلفاتي قد آذاني، فكيف يكون حالي لو أرسلت نفسي على سجيتها وحدثت الناس بما أراه في الأدب والحياة؟

من الجريمة أن نحدث الناس في شئون يُخاف عليها من التحريف، ومن الجريمة أن يكون اللسان وحده أداة التعبير وهو لا يرسل غير لفظٍ وصفه القدماء بأنه عرض سيَّال؟

يجب أن يكون القلم أداة التعبير في دقائق الشئون؛ لأنه يحدد أغراضنا تحديدًا يمكن الاحتكام إليه عند اشتجار الخلاف.

أقلوا من أحاديث المجالس، يا قرائي، لتسلموا من أكاذيب المفترين، فما وثق أحد بالناس في غير حذر ولا احتراس إلا سقوه الصاب والعلقم، وأكرهوه على الوقوع في الخطيئة الذميمة وهي اليأس من الثقة بإخوان الزمان.

ما الموجب للثرثرة في الأندية والمجالس وعندنا من الجرائد والمجلات ما يتسع لنشر ما نريد من الأفكار والآراء؟

ارحموا أنفسكم من أوزار التحريف لما يصدر عنكم واعرفوا جيدًا أن المبادئ لا تخدم بالقيل والقال بين أجواف الجُدران، وإنما تخدم المبادئ بالقول الصريح الذي يعجز عن تحريفه أصحاب الأغراض المراض.

ثم ماذا؟

ثم أوصيكم بأن تكونوا رقباء على أنفسكم، فلا تقولوا في السر ما تعجزون عن نشره في العلانية، وما أوصيكم إلا بما أوصي به نفسي، فأنا لا أقول كلمة في مجلس خاص إلا إذا عرفت أني أملك نشرها على الجمهور بلا تهيب ولا إشفاق، ولو شئت لقلت بدون أن يكذبني أحد المكابرين: إن لساني في غاية من التلطف والترفق، وإن اشتهر قلمي بالشطط والجموح، وما كان ذلك كذلك إلا لأني أكره المواربة وأبغض الاستخفاء، وما حقد عليَّ حاقدٌ إلا بما قلت فيه بكلام منشور في الجرائد والمجلات يملك الرد عليه حين يشاء. أما إيذاء الناس في السر فلا أستطيعه أبدًا؛ لأن الله تباركت أسماؤه عصمني من رذيلة الاغتياب، فله الحمد وعليه الثناء.

***

أحاديث العيد[١]

لم نقل مع المتنبي: «عيدٌ بأية حال عُدتَ يا عيدُ»[٢] فقد وصل ونحن بعافية، فلله الحمد وعليه الثناء، أدام الله علينا وعلى قرائنا نعمة الشعور بكرمه الموصول.

١- في يوم العيد وصل خطاب من الأستاذ حافظ محمود يقول فيه: إن هجوم السيد حسن القاياتي مدسوس عليه، وإنه لم يخط بقلمه حرفًا مما دار حوله الجدال في الأسابيع الماضية، ويدعوني إلى كتابة كلمة ترضية يطيب بها قلب ذلك الصديق.

وأقول: إنَّ المعلومات التي تضمنتها الخطابات المنشورة باسم الأستاذ القاياتي معلومات مريبة؛ لأنها متصلة بشئون لا يعرفها سواه، فإن لم يكن هو الكاتب فلن ينكر أنه مصدر المكتوب، وبهذا يقع عليه شيء من المسئولية.

---

(١) مجلة الرسالة: ١٩٤٣/١٠/١١.

(٢) شطر بيت جعله المتنبي مطلعًا لداليته في هجاء كافور الإخشيدي، وتمام البيت:

عيد بأية حال عدت يا عيد ... بما مضى أم بأمر فيه تجديد

ثم أقول: إنه كان يستطيع تكذيب ما نشر باسمه لأول مرة فينحسم الخلاف قبل أن يطول، ولكنه سكت نحو خمسة أسابيع، ثم بدأ في التشكي من العدوان عليه، وهذا من أغرب ما يقع في معاملات الناس.

وأنا مع هذا أعتذر للصديق عما بدر مني في مساجلته، وأعلن أني أعتز بصداقته كل الاعتزاز، وأني لن أسمع فيه كلامًا ولو نشر بنفسه في مغاضبتي ألف خطاب.

وهنا أذكر مذهبي في معاملة رجال الأدب ورجال السياسة، وهو مذهب يستحق التنويه ويصلح للاقتداء، فما ذلك المذهب؟

خلاصة هذا المذهب أني لا أتكلم عن أهل الأدب والسياسة بما يشبه النقد في أي مجلس؛ لأن الكلام عُرضة للتزيد والتحريف، وإنما أكتفي بما يخطه قلمي في الجرائد والمجلات، إن طاب لي أن أناوش أحد الرجال.

وأذكر أيضًا أني أعيش في عزلة بعد الرجوع من عملي إلى بيتي، فما يحتاج إلى غشيان الأندية غير من يعيشون بمنجاة من متاعب الواجبات، وأنا أحمد الله الذي تفضل فأكثر من أعبائي في حياتي، بحيث لا أجد فرصة لمسامرة المعارف والأصدقاء، فمن زعم أنه رآني وأني حدثته عن فلان أو عِلان بكيت أو كيت فهو من الكاذبين.

***

ماذا ربحت وماذا خسرت من أسواق السنة الماضية؟

كتب إليَّ أحد تجار الورق يقول: إنه يرجو أن أرسل إليه ما بقي له عندي ليسوي حساب تجارته في سنة ١٩٣٩.

وأنا أيضًا أريد أن أسوي حسابي مع قومي وزماني، حساب سنة ١٩٣٩ فقط، أما حساب الأعوام السوالف فهو عبء ثقيل والرجوع إليه ضربٌ من الخذلان. وأين أنا مما فات ومات؟ يرحم الله جهادي في سبيل الأدب والبيان!

ربحت في العام الماضي أشياء، وخسرت أشياء!

وأعظم ربح ظفرت به في السنة الماضية هو الصداقة العظيمة التي تفضل بها قراء مؤلفاتي ومقالاتي، فأنا اليوم أشعر شعورًا قويًّا بأن لي أهلًا وعشيرة في سائر الأقطار العربية، وهذا الشعور يزحزح ما يعترض طريقي من عقبات وأشواك، وبفضل ذلك الشعور أكاد أنسى الأعاصير التي تثور في وجهي من حين إلى حين.

والكاتب كالموسيقار يسره أن يعرف أنه موصول الأواصر بالعواطف والقلوب، فمن حدثكم أنه لا يهتم بسخط القارئ أو رضاه فاعرفوا أنه يقترف إثم الغرور البغيض، أو الكذب السخيف.

وتعظُم قيمة هذا الربح في قلبي كلما تذكرت أنه بشير بقيام دولة قوية للأدب العربي، وهو أدب كان يسيطر في ماضيه على كثير من الأمم

والشعوب، فإن استطعنا أن ننتفع بعواطف القراء ونجذبهم إلى الأدب من جديد كان ذلك مجدًا ندفع به عُدوان أهل البغي على الآداب والفنون.

وما الذي يمنع من أن يكون للقلم دولة في هذه البلاد؟

أتصدقون ما يمليه الضجر على أقلامنا من وقت إلى وقت حين نتهم مصر بالجحود والعقوق؟

إن مصر في تاريخها القديم والحديث قد استمعت كل قول، واستجابت لكل نداء، فكيف يتوهم الكاتبون والباحثون أنهم لن يلقوا فيها غير الضياع؟

***

ثم أقول: إن العام الماضي كان من الأعوام التي اختبرت فيها أخلاقي. ومعاذ الأدب أن أدعي التفرد بكرم الأخلاق، وإنما هي حيلة أتوسل بها لخلق فرصة أنوح فيها على أخي وصديقي محمد الهراوي. وهل ذرف الزيات من الدموع على ابنه رجاء، أو ذرف هيكل من الدموع على ابنه ممدوح، بعض ما سكبت من دم القلب على صديقي محمد الهراوي؟

كان من عادتي أن أرتاد ملاهي القاهرة في المواسم والأعياد لأفهم شيئًا من أسرار المدينة التي تصنع اليوم بأذواق الشرق ما تصنع. فمن يصدِّق أن شارع فؤاد صارف في عيني صورة من صور الإقفار والإمحال؛ لأنه خلا من وجه الصديق الغالي؛ وجه محمد الهراوي، وجه الأخ الذي عرفتُ بفقده كيف يكون الجزع على فقد الرفاق.

وهل تسمح الدنيا مرة ثانية بصديق مثل ذلك الصديق؟

وأين الصديق الذي تصحبه عشرين سنة فلا ترى منه غير كرم العهد وصدق الوفاء؟

أين الصديق الذي يرى من السعادة أن يكون رأيه من رأيك وهواه من هواك؟

إن دموعي على محمد الهراوي دلتني على جوانب من أخلاقي، وشرفتني أمام نفسي، وفرضت عليَّ أن أومن بأني رجل له قلب. فلا كان الصبر عنك يا أكرم ذاهب وأعز فقيد.

***

وكان من مغانم السنة الماضية أن تصير اللغة العربية لغة الدرس في كلية الطب وكلية العلوم، وهي دعوة عانيت فيها من الشقاء ما عانيت. فمن قال: إنه دعا إلى هذه الفكرة مرة أو مرتين أو مرات؛ فأنا جعلتها حُلمًا أهتف به في يقظتي ومنامي أكثر من خمس عشرة سنة. وبسبب الإلحاح في نشر هذه الدعوة رآني بعض أقطاب الجامعة المصرية من الثقلاء، وأوصدوا في وجهي كثيرًا من الأبواب. فإن قال أعضاء المؤتمر الطبي العربي بعد أسبوعين: إنهم قرروا تدريس الطب باللغة العربية في كلية الطب بالقاهرة، فليذكروا مشكورين أنهم سفَّهوني علانية يوم التقينا في بغداد سنة ١٩٣٨.

***

وفي العام الماضي قُدِّمت لكلية الحقوق رسائل لامتحان الدكتوراة باللغة العربية، وقال قائل: إن في ذلك مجاراة للنزعة القومية، فمن واجبي نحو نفسي، وأنا رجل مظلوم في وطني، أن أقول: إن ذلك لم يقع إلا طلبًا

للسلامة من القلم الذي شن الغارة على من يقبلون رسالة باللغة الفرنسية عن (الدية في الشريعة الإسلامية) ولتلك المعركة ذيول فصلتها في كتاب «البدائع» وفي رسالة «اللغة والدين والتقاليد» وفي كتاب «الأسمار والأحاديث» فإن غضب وزراء المعارف الذين حاربتهم من قبل فليعرفوا أني أديت إليهم بذلك التوجيه أعظم الخدمات. وحسبهم من الشرف أن يسمعوا كلمة الحق من رجل ليس له في الحكومة عم ولا خال.

***

وفي العام الماضي قررت وزارة المعارف تأليف كتاب للمطالعة في المدارس الثانوية من صميم الأدب الحديث، وأنا صاحب هذا الرأي، وقد شغلتُ نفسي بالدعوة إليه أكثر من عشر سنين.

***

وفي العام الماضي قضت الظروف بأن تقبل وزارة المعارف إسناد تعليم اللغات الحية في المدارس الثانوية إلى المصريين، فليتها سمعت الدعوة التي أذعتها منذ أعوام طوال، الدعوة إلى أن يكون مدرسو اللغات الحية من المصريين لنخلق جيلًا من المتفوقين في اللغات الأجنبية، وليكون بيدنا الأمر في تكوين الثقة بالعزيمة الوطنية.

وفي العام الماضي... ما هذا؟ ما هذا؟

أراني أنحدر إلى هاوية المنِّ الممقوت، فلأرجع إلى تدوين ما خسرتُ في السنة الماضية:

في سنة ١٩٣٩ نسيت أني موظف بالحكومة المصرية فوقع قلمي في أغلاط لا يقع فيها الموظفون «العقلاء».

أنا من كتاب الطبقة الأولى بشهادة أعدائي، ولكني لم أخط خطوة واحدة في كسب حق جديد لحرية الأقلام. كنت أستطيع أن أنتفع بالدكتور هيكل باشا، ولكنني لم أقابله إلا حين دعاني، وقد هجمتُ عليه في (جريدة المصري) مرتين. وكنت أستطيع أن أنتفع بمعالي النقراشي باشا، وهو رجل مُشرق العقل، ولكني قصرت فلم أقابله غير مرتين؛ كنت في الأولى مهنئًا، وهي زيارة لا تتسع لبحث ولا درس، وكنت في الثانية مقرونًا بجمهور المفتشين بالتعليم الثانوي، وهو مقام لا يتسع فيه المجال لغير الشئون الرسمية.

أليس من سوء البخت أن يكون لنا وزير مثل النقراشي باشا ولا أظفر منه بشيء لحرية الأقلام؟

***

كنت أحب أن أطلب إجازة طويلة لعام أو عامين لأحقق مشروعًا عجزت عن تحقيقه في بغداد، وهو تأليف كتاب عن أبي تمام إمام المبتكرين في القرن الثالث، فهل شغلت نفسي بتقديم هذه الرغبة إلى معالي النقراشي باشا وهو من وزرائنا الأدباء؟

وكنت أحب أن أقترح إنشاء قلم خاص بمراجعة ما يُكتب عن مصر في الأقطار العربية، فهل شغلت نفسي بتقديم هذا الاقتراح إلى رئيس الوزارة المحمدية أو رئيس الوزارة الماهرية؟

دونت هذه الآراء في كتاب «ليلى المريضة في العراق» ولكن مَن يضمن أن يكون هذا الكتاب مما يقرأ الوزراء؟

ماذا خسرتُ في العام الماضي؟ ماذا خسرت؟

كان عندي مشروع عظيم هو ربط الأمم العربية والإسلامية برباط وثيق من الحب والعطف.

فما الذي صنعت لتحقيق ذلك المشروع العظيم؟

ضيعت العام الماضي -واأسفاه!- في مجادلات ومشاغبات نفعُها قليل، وانصرفت عن تحقيق ذلك المشروع الجليل.

فمن يُسعدني على بكاء ما ضيعتُ من أماني وأحلامي؟

وكان في نيتي أن أخلق عُصبة للخير من أصدقاء كلية الآداب كنت أحب أن أنظم سلسلة للدراسات الأدبية والفلسفية أصنع بها في القاهرة بعض ما يصنع أساتذة كلية الآداب في الجيزة، فأين أنا مما أردت؟ وأين ما صنعتُ لكلية الآداب وفوق ثراها سكبت عُصارة صباي؟

***

وكان في نيتي أن أكوِّن مكتبة عظيمة مما أصدر المتخرجون في كلية الآداب، ثم أسوقها في عربات رزينة إلى قصر صاحب الجلالة الملك، فأين ضاعت تلك النية؟ وما مصيرها في تاريخ العقول؟

***

وكنت أحب أن أقوم بدراسات قوية أحدد بها اتجاه الأدب الحديث في مصر والمغرب والشام والعراق، فأين من يعزيني على ضياع هذا الأمل الغالي؟

***

وكنت أشتهي أن أزور الحجاز لأكتب عن وطن الرسول كتابًا لا يعرف الزور ولا الرياء، فأين ضاعت أحلامي؟

***

وكنت أتمنى أن أؤرق غفوات المغرورين من «أعلام» الأدب الحديث، فإلى أي أفق من آفاق الضياع ضاع أملي في تأديب أولئك «الأعلام»؟

***

كنت وكنت وكنت، فما الذي صنعت السنةُ الماضية بأغراضي وأحلامي؟[1]

(١) مجلة الرسالة: ٨/١/٤٠.

تلك أيام خلت

في الكلمة الماضية دونتُ بعض ما ربحت وبعض ما خسرت؛ وسأقصر كلمة اليوم على التنويه بأمور ينفعني النظر فيها من وقت إلى وقت، فإن صح أني قليل الاعتبار بحوادث الأيام، فقد يكون في القراء من ينتفع بالعبرة التي يسوقها هذا الحديث. وآفة الأدب في بلادنا أن الأدباء لا يتحدثون عن عيوبهم إلا قليلًا، وهذا التحرز من سرد العيوب قد يوهم فريقًا من القراء بأن الأدباء تعصمهم مواهبهم من الوقوع في الأغلاط والهفوات. ولو أنهم عرفوا أن الأديب يخطئ ويصيب كسائر الناس، لأدركوا أن التفوق في الأدب ميسور لكل من يتوجه إليه، وهو مزودٌ بقوة العزيمة، ورجاحة العقل، وصدق الوجدان.

فما الذي فاتني من الفوز والنصر في السنة الماضية حتى أرجع على نفسي باللوم والتثريب؟

أعتقد أني ضيعت على قلمي فُرصًا لن تعود: كنت في العام الماضي مرهف الإحساس، ولكن قلمي لم يستفد من ذلك. والكاتب المخلص لفنه لا يترك عواطفه تتبخر وتضيع، وإنما يسارع إلى الاستفادة من فورتها، فيكتب وهو مشبوب القلب ليستطيع السيطرة على القلوب...

وما أقول: إني انصرفت عن مصاولة الأزمات الوجدانية، فقراء «الرسالة» يذكرون أني كنت أواجههم بهذه الشئون من حين إلى حين، ولكني أعترف بأني ظلمت نفسي أقبح الظلم حين تغافلت عن تسجيل ما كان يثور في صدري من العواطف في بعض الأحايين.

حدثني الأستاذ الزيات قال: إن بعض القراء لا يستريحون إلى بعض ما تكتب في الشئون الوجدانية، وإن من الخير لمن كان في مثل مركزك أن يقف عند حدود الأدب الرزين!

و«بعض القراء هم المشايخ الذين يسمرون في نادي «الرسالة»، ليجادلوا الزيات فيما يباح وما لا يباح من المذاهب والآراء، وفيهم من لا يرضى عن كاتب مثل إلا إن شغل نفسه بشرح «دلائل الخيرات»!.

والحق أني راعيت رأي هذا الصديق بعض المراعاة، والزيات صديقٌ أمين، والانتفاع برأيه من أوجب الفروض، ولكن كيف كانت العواقب؟

أضعت على نفسي وعلى «الرسالة» فُرصًا لن تعود... وهل أملك رد العواطف التي ثارت ثم خمدت في تباريح السنة الماضية؟ «تلك أيامٌ خلتْ»، ولن يردها أسفٌ ولا بكاء!

إذا صح أني مفطور على إحساس الفرح والحزن في الحياة، وإذا صح أني أقوى ما أكون حين أفرح أو حين أحزن، فكيف يضيق صدر وطني وزمني عن سماع سجعاتي وزفراتي؟ وبأي حق يحرُم عليَّ ما يباح للشعراء في جميع البلاد؟

وهل تصدقون أن الناس يكرهون حقيقة أن نحدثهم عن أزمات الأفئدة والقلوب؟

وهل صدق الأستاذ فكري أباظة حين حدث الناس عن طريق المذياع باندهاشه من أن يسمع أغاني الهجر والوصل والدنيا في حرب؟

وهل تظنون أن هذا الخطيب يقضي أيام الحرب في التخشُّع والقنوت أمام المحراب؟

الدنيا في حرب، وسيعقب الحرب سلامٌ بعد عام أو عامين، ولكنكم تنسون أن الشاعر يعاني حربًا لا يصد شرها عنه غير الموت، إن صح أن الموت يريح أرواح الشعراء من البلاء بالتفكير في أسرار الوجود.

وما الذي يوجب الخضوع للأفكار العاتية التي تتوهم أن الحرب تقدر على زلزلة السريرة الإنسانية؟

الحرب تستطيع أن تصنع بالسريرة الإنسانية ما تصنع العواصف بأمواج المحيط، فهي تقلقل المنافع من وقت إلى وقت، ولكنها تعجز عن اقتلاع ما في السرائر من جذور الحب والبغض والهدى والضلال.

والشاعر ينظر إلى من حوله من الناس نظرات مختلفات: فيرى بكاءهم مرة بكاء أطفال، ويراه مرة زئير أسود. فالطفل لا يذكر من الحرب غير تنقل «التسعيرة» من وضع إلى وضع، ويكون مثله مثل الطباخ الذي انزعج لارتفاع أسعار القطن؛ لأنه رأى ذلك نذيرًا بارتفاع أسعار الزيت!

أما الرجل -والشاعر الحق هو الرجل الحق- فيرى أن الحرب لا تكون سيئة العواقب إلا إن استطاعت بفواجعها أن تقتلع من السريرة الإنسانية جذور الإحساس بمعاني الحياة... وهل في الحياة معانٍ أشرف وأفضل من الحرص والشره والطمع في انتهاب أطايب الوجود؟

شغلتُ نفسي مرةً بتأريخ ملاهي الحي اللاتيني في باريس، فجمعت أكثر من خمسين كتابًا تحدث مؤلفوها عن ملاهي ذلك الحي، ثم راعني

أن ألاحظ أن تلك المؤلفات كُتبت قبل الحرب العالمية، فعرفت أن الباريسيين بعد تلك الحرب فقدوا شعورهم بتذوق الحياة فلم يعودوا يهتمون بتسجيل ما يصادفهم من النعيم في ذلك الحي البهيج.

فإن استطاعت الحرب الحاضرة أن تشغلنا عن أحاديث الهجر والوصل؛ فسيكون معنى ذلك أننا صرنا أطفالًا ضعافًا لا يهمهم من الدنيا غير اعتدال أسعار «اللعب والصواريخ»!

أقول هذا وفي مكتبي مقال لم يسمح بنشره الأستاذ الزيات؛ لأنه خشي أن يفتح لخصومي باب الأقاويل والأراجيف، وهو مقال سجلت فيه إحساسي بفراغ شارع فؤاد من أقدام الملاح يوم تجربة الغارة الجوية. فهل من الحق أن الحرب رجت مصر رجة تذهب بما يملك شعراؤها من عواطف وأحاسيس؟

وهل من الحق أن أهل مصر لم يعودوا يأنسون بغير حديث البقول؟

أعترف بأني توجعتُ مرة على صفحات الرسالة من غلاء الورق، وذلك توجع مشرف؛ لأن الأمة التي تشكو غلاء الورق هي الأمة التي تُعز الأفكار والعقول، وكل شيء في دنيانا من الكماليات إلا الورق فهو عندنا من الضروريات، والمصري المثقف قد يكتفي بالقليل من القوت، ولكنه لا يستغني أبدًا عن زاده من الحبر والورق.

ونحن قومٌ آذتنا الظروف الدولية أقبح الإيذاء، فليس لنا من السيطرة الاقتصادية أو الحربية ما للأمم الديمقراطية أو الديكتاتورية، ولكن لنا مع ذلك سيطرة عقلية نصول بها في أقطار الشرق. ولو شئتُ لقلت: إننا نملك من هداية الشرق ما لا يملك الإنجليز والفرنسيس والألمان، ولهذه

الدولة الروحية سلطانٌ يحسدنا عليه من يملكون في تصريف السلم والحرب ما لا نملك، فليس من العجيب أن نشكو غلاء الورق في زمن لا يشكو فيه المسيطرون غير غلاء القُوت.

والشرق ينتظر أن نحدثه عن نفسه بما لا يعرف.

فكيف يغيب عنا أن من الواجب أن نكون أفصح من يذيع في الشرق أحاديث السريرة الإنسانية؟

استيقظوا، أيها الغافلون، واعلموا أنكم لن تكونوا شيئًا مذكورًا إلا إذا استطعتم أن تشغلوا الشرق عما في الغرب من ألحان وأغاريد.

هل فكر واحد منكم فيما عرف الشرقيون من الآداب الفرنسية والإنجليزية؟ وهل خطر في بالهم أن في الأقطار الهندية والأفغانية والإيرانية أقوامًا يقرءون عن العقول الفرنسية والإنجليزية أضعاف ما يقرءون عن العقول المصرية؟ وهذا يقع مع أن مصر في هذا العهد تستطيع أن تكون قيثارة ترجع ألحان السماء لو تركت التزمت الممقوت الذي يفرض التغاضي عن أحاديث القلب والوجدان. سألني أحد الأصدقاء منذ أيام عن الظروف التي ألفت فيها كتاب (التصوف الإسلامي) وهو يتوهم أنني لم أذق قطرة من رحيق التصوف، فقلت: ذلك كتابٌ زكيتُ به عن قلبي. فقال: وهل على القلب زكاة؟

فقلت: آفة الآفات أن تظن أن الزكاة لا تجب على القلوب والأحاديث الوجدانية التي أهتف بها من حين إلى حين هي نفحة من نفحات التصوف، فكيف يراها بعض القراء منْ مظاهر الفتون؟ وكيف يرى صديقي الزيات أن نشرها يقوي حجة خصومي وأعدائي؟

بل كيف استبحت ظلم نفسي فلم أهجر مجلة الرسالة لأتحدث عن فؤادي بما أشاء؟

تلك أيام خلت! فمتى أرجع إلى مناجاة أوهامي وأحلامي؟

إنَّ الحديث عن الظواهر لا يحتاج إلى عبقرية، أما الحديث عن ضمائر النفوس وسرائر القلوب فلا ينهض به غير أفذاذ الشعراء. فمتى أجد آذانًا تطرب لأسجاع الروح المفتون بتهاويل الوجود؟ ومتى أجد قلبًا يسمع وسواس قلبي؟ ومتى أجد روحًا يأنس بغناء روحي؟

هل سمعتم بما صنعت وما تصنع مشيخة الأزهر؟

هي تستعدي الحكومة المصرية على كل من يطبع كتابًا دينيًا تقع فيه غلطة نحوية أو صرفية أو إملائية!

فهل علمتم في يقظة أو في حلم أن مشيخة الأزهر شغلت نفسها بطبع طائفة من الكتب الدينية؟

كذلك يصنع معي خصومي وأعدائي، فلا هم يؤدون زكاة القلوب، ولا هم يسكتون عمن يؤدي زكاة القلوب.

زُرتُ السيد آل كاشف الغطاء في النجف على غير معرفة فقال: من أي بلد قدمت أيها السيد؟ فقلت: قدمت من وطن ابن الفارض. فقال: وطن الذي يقول:

كل من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكل من في حماكا

فقلت: بل وطن الذي يقول:

أنــت ورد فَهـسب محبّـك شــوكا أترى الوردَ عـاش مـن غير شـوكِ

فـإن كنـت مـن الـشوك فـلا بـأس، فـالورود لا تعـيش إلا فـي حمايـة الأشواك، والروح اللطيف لا يعيش إلا في قفص من الجسم الكثيف.

وسمعت في الأيام الأخيرة أن إحدى المجلات تنوشني منذ أسابيع فرفضت الاطلاع على تلك المجلة؛ لأني أخشى أن تروضني على الشراسة والحقد، وأنا أحب مسالمة الناس لأفرغ لمحاربة قلبي، القلب الجامح الذي يقهرني على الوفاء لأقوام لا يعرفون معنى الوفاء.

ثم ماذا؟ سأتحدث في الأسبوع المقبل عن لواعج وشجون يضيق عنها حديث اليوم.

***

الشعب هو المسئول عن الإصلاح الاجتماعي[1]

أخي الأستاذ الزيات!

ليتك شهدت المناظرة التي أقيمت بكلية الآداب في مساء الأحد الماضي؛ لترى مبلغ ما وصلنا إليه من حرية الفكر والرأي، ولترى كيف يستبيح ناسٌ إيذاء إخوانهم بلا استبقاء، ولترى أيضًا كيف تطغى العامية الفكرية على بعض من وسموا بالتثقيف.

وسأصف جو تلك المناظرة بإيجاز، أداء لحق «الرسالة»، فمن قرائها ألوفٌ يحبون أن يعرفوا كيف يشتجر القاهريون في ميادين الحجج والبراهين.

كانت المناظرة برياسة معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشئون الاجتماعية، وقد سبقت بحفلة شاي أعدها عميد كلية الآداب ترحيبًا بالوزير وبالمتناظرين وكبار المدعوين.

وبعد الشاي رأينا الوزير ينتحي ناحية ليراجع خطبة طويلة متصلة بموضوع المناظرة، فعرفت أننا سنقضي شطرًا من الليل في نقاش وجدال، وقد هممت بمراجعة الوزير، ثم تركت الأمور تجري إلى مداها المرسوم في ضمير الغيب.

---

(١) مجلة الرسالة: العدد ٥٠٧ بتاريخ ٢٢ مارس/١٩٤٣.

وحين وصلنا إلى المدرج الأكبر بالكلية رأينا جماهير كثيرة وعانينا قيظًا قد اقتبست ناره من وهج القلوب... ألقى العميد كلمة ترحيب بالوزير، وألقى أحد الطلبة كلمة ثانية، ورأى الوزير أن يطوي خطبته لضيق الوقت، ثم دعا المتناظرين إلى الكلام.

كنت الخطيب الأول، وكانت خطبتي مكتوبة، ولكني رأيت الجو يوجب أن أعرض الموضوع بصورة خطابية، وفي دقائق، لأستبقي الفرصة الباقية، فرصة المنبر الأكبر على صفحات «الرسالة» الصديق.

لن أحدثك عما قوبلت به خطبتي من الإعجاب، وإنما أحدثك عن مناظر قصر خطبته على مناوشتي بأساليب يمجها الذوق، مع أن المناظرة في كلية الآداب، وبرياسة وزير الشئون الاجتماعية!

حضر هذا المناظر وفي قلبه أشياء، فهو لن ينسى أني أفحمته منذ عامين في محاضرة ألقاها بأحد الأندية تأييدًا لفكرة وهمية نبتت في بعض خرائب الرءوس، وهو لا يستطيع نشر تلك المحاضرة بأي حال؛ لأنها من صنوف البهتان.

كان الظن أن يتناسى حضرة المناظر تلك المعركة الأدبية، وأن يجعل همه الأول والأخير في شرح الرأي الذي ارتضاه في مناظرة ذلك المساء، ولكنه جعل همه في التحرش بالدكتور زكي مبارك وتأليب الجمهور عليه بطريقة عدها الحاضرون ضربًا من التحدث الممقوت.

ليست المناظرة قتالًا بين شخص وشخص، وإنما هي نضال بين رأي ورأي، وليست المناظرة فرصة للتشفي، وإنما هي فرصة للتصافي.

أترك هذا وأذكر أني أعجبت في ذلك المساء بخطيبين مجدا الفكر والرأي، أحدهما الأستاذ صالح جودت، وثانيهما الأستاذ حسين دياب، ومع أنهما جريا في ميدانين متعارضين فقد استطاعا الظفر بالحمد والثناء.

قال صالح: إن اعتماد الشعب على الحكومة تحول إلى طمع في الحكومة. وهذه فكرة دقيقة جدًّا.

وقال صالح أيضًا: إن الذين يقيمون الحفلات الخيرية لمعونة الفقراء لا يفتحون مغاليق الجيوب إلا بفضل المراقص المسبوقة بأكواب الصهباء.

وهذا كلامٌ يجب أن يقال ولو مرة واحدة، عساه ينفع بعض الجمعيات.

وقال حسين: إن الحكومة هي التي تُسال عن الإصلاح الاجتماعي؛ لأن عندها وسائل يعجز عن مثلها الشعب... وقال أيضًا: إن يقظة الحكومة لا تغني الشعب عن الاهتمام بما يجب عليه في تدبير أمور المعاش... وهذا وذاك من الكلام النفيس.

أمَّا لغة المتناظرين فكانت سليمة، بغض النظر عن اللحن المضحك؛ اللحن الذي تكرر ثم تكرر من الخطيب اللحان، وهو فلان!

أيهون منبر كلية الآداب إلى الحد الذي يسمح بأن يعلوه خطيب لا يعرف الأوليات من قواعد اللغة العربية؟

اتقوا الله يا ناس في منبر كلية الآداب!

ومن ذلك الخطيب؟

سأذكر اسمه يوم يغير ما بنفسه بعد قراءة هذا الدرس.

سأذكر اسمه يوم يعرف أن المناظر لا يكتفي بالقصاصات من المجلات.

إن خطبة عميد كلية الآداب لم تزد عن أربعة أسطر، وهو مع ذلك تلاها تلاوة ليأمن الخطأ في الإعراب، أما فلان فقد فعل بنفسه ما لا يفعل الأعداء.

ثم ماذا؟

ثم أعلن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق أن رأيه كوزير أن يستزيد الحكومة من المسئوليات. فقلت: ومن واجب الشعب أن يتحمل جميع المسئوليات.

ثم؟

ثم أسجل خطبتي في «الرسالة» لتُسجَّل في ضمير الزمان، وليعرف من لا يعرف أن للمصريين جذوات فكرية مقبوسة من نار الخلود.

***

أيها السادة:

أحييكم باسم الفكر والرأي، ثم أشكر من تفضلوا فدعوني للاشتراك في هذه المناظرة، فقد هيئوا فرصة جديدة لتوضيح نظرية نفر منها الجمهور حين عرضتها في بعض الجرائد والمجلات، وهي النظرية التي تقول بأن الفرد هو الحجر الأول في بناء المجتمع، وبأن الشعب هو المسئول في جميع الأحوال عما يتعرض له من متاعب وصعاب.

وسأعرض تلك النظرية في هذا المساء بأسلوب جديد، راجيًا أن تراعوا أننا في رحاب كلية الآداب، فلا يثور من تعودوا الثورة على الحق في المناظرات الماضية، وراجيًا أن تذكروا أن ما تضيق به صدوركم اليوم قد يصبح من المألوفات بعد حين.

أمَّا بعد: فمن المسئول عن الإصلاح الاجتماعي: الشعب أم الحكومة؟

في شرح هذه المعضلة أقول:

أنا أقبل إلقاء جميع المسئوليات على الحكومة، ولا يصح عندي أن الشعب طفلٌ لا يفرق بين التمرة والجمرة، على نحو ما كانت الحال في طفولة الشعوب.

أمَّا اليوم وقد اكتملت قُوى الشعب وتخطى العهود الفطرية، فمن الواجب أن يُسأل عن كل شيء، وأن يكون إليه الأمر في جميع الشئون.

وما السبب في إنشاء الحكومات؟

افترض جان جاك روسو أن الخلائق اجتمعت يومًا للتشاور في الصورة التي تصان بها الحياة الاجتماعية، وأن كل فرد تنازل عن جزء من حريته؛ ليتكون من تلك الأجزاء قوة تحمي المجتمع من عدوان الأقوياء على الضعفاء.

وقد آن أن نسترد ما تركنا من حريتنا باسم صيانة المجتمع. آن أن نكرم الإنسان بأن نسأل أمام الضمائر لا أمام القوانين، فإن من العار على الإنسانية أن يطول احتياج بنيها إلى حكام يصدونهم عن تقارض الظلم والاضطهاد.

كل أمة تحتاج إلى وزارة اسمها وزارة العدل، فما معنى ذلك؟ معناه أن الأمم لم تصل إلى الرقي الصحيح، ومعناه أن بغي الناس بعضهم على بعض خطر يرتقب في كل حين.

لا مانع من أن تكون في الدنيا محاكم، على شرط أن لا يُحتكم إليها إلا في القضايا التي تحتاج إلى اجتهاد القضاة، أما القضايا التي يقال فيها: إن الحلال بيّن والحرام بيّن فاحتياج الإنسانية فيها إلى القضاة ضرب من الإسفاف.

المثال الصحيح للأخلاق السليمة هو أن تعرف ما لك وما عليك، فتحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتبغض لأخيك ما تبغض لنفسك، ويكون رأيك في تقدير المشكلات الاجتماعية هو الميزان.

قال فلاسفة الغَرْب: «الإنسان مدني بالطبع»، ومعنى هذا: أنه يكره التوحد الموحش، ويميل إلى الوداد والإخاء، وكذلك كان حاله بالفعل، لولا بدوات ترده إلى عهود الوحشية من حين إلى أحايين.

ويقول التاريخ الاجتماعي: إن الدنيا في عهود الظلمات كان فيها شهود يُستأجرون كما يستأجر الفتاك. وقد انقرض هذا الصنف من الناس أو كاد، وتلك بداية لطيفة، فقد نستغني يومًا عن المحاكم، وقد يصبح كل فرد وهو مسئول أمام الضمير لا أمام القانون.

أليس من العيب على الإنسانية أن تحتاج إلى جيوش من القضاة والمحامين في شئون يحكم فيها الضمير قبل أن يحكم القضاء؟

في بضع مئين من السنين يتحول بعض الحجر إلى مرمر، وقد مرت ألوف وألوف من السنين ولم يتحول الإنسان إلى مَلَك، فبأي وجه تلقى الإنسانية بارئها يوم يقوم الحساب؟

الحكمة اليونانية تقول: اعرف نفسك بنفسك.

والحكمة الإسلامية تقول: الإثم ما حاك في صدرك.

ونحن مع هذا وذاك لا نسير في الطريق إلا معتمدين على أسندة من رعاية الحكومات... كأننا خلائق تحبو في فجر التاريخ!

أقدم أمة أقيمت فيها حكومة هي الأمة المصرية، وكان ذلك من أبواب المجد، يوم كان النظام حلمًا يداعب خيال الإنسانية.

وستكون مصر أول أمة تعيش بلا حكومة، وسيكون ذلك أعظم آيات المجد؛ لأنه الشاهد على السمو الذي تغنى به الحكماء، جيلًا بعد جيل.

نحن سبقنا جميع الشعوب إلى إقامة النظام الحكومي، يوم كان أصلح أداة لكبح الطغيان الفردي والاجتماعي.

وسنسبق جميع الشعوب إلى الاستغناء عن النظام الحكومي؛ لأنه يطعن في قدرة الإنسانية على مغالبة الأهواء.

وماضينا في التاريخ القديم يطمعنا في تحقيق الأمل الجميل، فنحن الذين أقمنا النظام الشمسي قبل أن تعرفه أمم المشرق والمغرب. ونحن الذين غزونا بالروح أممًا لم تكن تُغزَى بغير السيف. وقد وصلت فنون

أجدادنا إلى أمريكا قبل أن يكتشفها كولومبوس بأزمان وأزمان... ألم تسمعوا أن أمريكا وجدت فيها آثار بها ملامح من الفنون المصرية؟

وتحرش بنا الأوربيون متجمعين عشرات السنين لعهد الحروب الصليبية، فرددناهم على أعقابهم بعد أن زودناهم بأصول المدنية الشرقية، وهي أساس المدنية الغربية.

ونحن كنا الحصون التي صدت غارات المغول، ومن قبل ذلك بقرون أوحينا إلى الإسكندر الأكبر أن يتجشم متاعب السفر إلى الواحات ليزور معبدًا يجمع بين الرحموت والجبروت، وهو معبد آمون؛ آمون الذي دخل اسمه جميع اللغات فصار «آمين» التي تقال عقب الدعاء.

أرضنا هي الأرض، وسماؤنا هي السماء، ومجدنا هو المجد، وخلودنا هو الخلود.

فما الذي يمنع من أن نكون أول أمة تعتز بالقوة الذاتية؟

ما الذي يمنع من أن نكون حكام أنفسنا في جميع الشئون؟

وما الذي يمنع من أن نسبق جميع الأمم إلى فهم الغاية الصحيحة من قوة الروحانية؟

لكل أمة عذر في التخلف، ولا عذر لمصر في التخلف، وهي أقدم حجاز بين الحق والباطل والهدى والضلال.

وتاريخنا الحديث لا يقل عظمةً عن تاريخنا القديم، فقد حيكت حولنا الدسائس الدولية بالألوف، وكانت بلادنا مصطرعًا لأشتات من الجيوش، فهل غُلبنا في الميادين الفكرية، حين غلبنا في الميادين الحربية؟

أين الدولة التي تستطيع أن تزعم أنها نقلت القلب المصري من مكان إلى مكان؟

أين الدولة التي استطاعت أن تصد الفكر المصري عن التغلغل في آفاق الشرق.

لبلادنا خصائص أصيلة أيسرُها القدرة على قهر عوادي الاضمحلال، وكيف تضمحل أرض نجد فيها الماء في كل بقعة، والله جعل من الماء كل شيء حي.

أول كُفر عرفته الخلائق هو كفر المصريين، وأول إيمان عرفته الخلائق هو إيمان المصريين، وأشهر الأفراح أفراح المصريين، وأشهر الأحزان أحزان المصريين.

هل عرف تاريخ الجاهلية أعظم من المعابد المصرية؟

وهل عرف التاريخ الإسلامي أروع من المساجد المصرية؟

وهل يوجد للفلاح المصري نظيرٌ في أي أرض؟

وهل يوجد ماءٌ أعذب من ماء النيل؟

وهل عُرفت العظمة في المباني قبل أن تُعرف في هذه البلاد؟

وهل يوجد في الدنيا ناس يفوقون المصريين في حلاوة الشمائل ولطافة الطباع؟

لم يبق إلا أن نتفرد بالابتكار الأخير، وهو الابتكار الذي عجز عنه من اهتدوا إلى البخار والكهرباء، وهذا الابتكار هو الكشف عن الجوانب المستورة من الأرواح والقلوب، الجوانب النقية، ففي قلب كل رجل غابة عذراء لا تغرد فوق أدواحها غير بلابل الطهر والصفاء.

اجمعوا جموعكم، واستعينوا بمفكريكم، لتكتشفوا الواحة المجهولة في الضمائر المصرية، فقلبي يحدثني بأن في هذا الوادي سرائر مطوية تفوق الأحجار التي يشقى في البحث عنها علماء الحفريات!

أنفقوا في البحث عن الضمائر الحية معشار ما تنفقون في البحث عن الأحجار الميتة، واعلموا أن مصر لن تموت؛ لأنها مؤيدة بروح الحق الذي لا يموت.

أين مصر التي عرفناها أو جهلناها، وأين مكانها الأصيل في تاريخ الوجود؟

ستكون أول أمة تعيش بلا حكومة؛ لتقيم البرهان على أنها فوق الشبهات والأضاليل.

قد تقولون: إن واقع الحياة لا يعرف هذا الخيال... وأقول: إن الأمر في هذه الأيام يؤيد ما تقولون، فلو عاشت الأمة بلا حكومة أسبوعًا أو أسبوعين؛ لانتشرت الفوضى وعمَّ الاضطراب وشاع الفساد.

ولكني مع هذا أجزم بأن الحكومة لا تستطيع بأي حال رعاية أمة فقيرة في نواحي التماسك الذاتي والاجتماعي، فخضوع الأمم للشرائع والقوانين لا يكون خضوعًا شريفًا إلا إن صدر عن إرادة ذاتية مردُّها إلى أدب الأحرار لا أدب العبيد.

ونحن في مصر نفهم هذه المعاني، فوزير المعارف يعتمد على ضمائر المدرسين، ووزير العدل يعتمد على إيمان الناس بأدب المعاملات، وكذلك يقال في الأمور التي يعالجها سائر الوزراء.

قد سمعتم أو قرأتم أن وزارة الوقاية وزارة وقتية تنتهي مهمتها بانتهاء الحرب، فما المستقبل الذي ينتظر وزارة الشئون الاجتماعية؟

أنا أقدر أن مهمتها ستنتهي بعد أمدٍ قريب، يوم يفهم الشعب واجبه في الإصلاح الاجتماعي، ويوم يدرك أن احتياجه إلى عون الحكومة في تلك الشئون ضربٌ من الفقر في الروح والوجدان.

وهذا المستقبل لن يكون بعيدًا كما نتخوف، فالشواهد تنطق أن ضمير الأمة سيستيقظ بعد طول السبات، ولعله استيقظ بالفعل. ألا ترون أن الأمة تتسامى إلى أمور كانت قبل اليوم من تهويل الخيال؟

قبل أن تشب الحرب ويغلو الورق كان متوسط ما تخرج المطابع المصرية في كل يوم اثني عشر مجلدًا، وكان لصحافتنا المقام الثالث بعد الصحافة الإنجليزية والأمريكية، وكنا أول أمم الشرق في إحياء الذخائر العربية والإسلامية، وسيكون لنا بعد الحرب ميادين يعتز بها العقل والبيان.

ومعنى هذا أن يقظة الذكاء المصري يقظة حقيقية، وأن تحليقاتنا في سموات الفكر والرأي لم تكن أضغاث أحلام، فكيف تستبعدون أن يستيقظ الضمير المصري فيغني الحكومة عن التعب في مداواة الأمراض الفردية والاجتماعية؟

إن تعادل الضمير والذكاء في مصر فستصبح الأمة المصرية أمة نموذجية، وستبدع في الأدب النفسي آيات لا نظائر لها ولا أمثال.

إن أفضل الفروض في وصف الصلة بين الحاكمين والمحكومين هي أن تشبه بالصلة بين الآباء والأبناء، فهل سمعتم أن أبًا يحب أن يكون ابنه عالة عليه في جميع الشئون!

ونحن اليوم في مطلع حياة جديدة، ولا بد لنا من رياضة أنفسنا على الاضطلاع بحمل جميع الأعباء.

وسنجاهد ونجاهد إلى أن تشعر الحكومة أنها تعيش في أمة مثالية لا تحتاج إلى حكام في أي ميدان.

سنجاهد ونجاهد إلى أن تغلق المحاكم بفضل اعتماد الشعب على الاحتكام إلى الضمائر والقلوب.

لن يطول صبر الإنسانية على هذه الحياة الوضيعة، وهي الحياة التي لا ينزجر فيها منزجر إلا خوفًا من سطوة القضاء.

إن الاستقامة السليمة هي التي تنبعث من النفس، كما يستقيم العود حين تكتمل قواه، أما الاستقامة التي توجبها قوة خارجية فهي استقامة

العود الذي يُستر ضعفه بأسندة من الجريد، وهذا حال الأخلاق التي لا تستقيم إلا بأسندة من القانون.

إنَّ الجوارح الروحية تعطلت بسبب الاعتماد على الحكومة في مختلف الشئون، وإن المواهب النفسية تهدمت بسبب التفريط في رياضتها على النفاذ والمضاء.

الأمم الضعيفة تكل أمورها إلى الحكومات لتستريح من الجهاد، أما الأمم القوية فتنهض بأحمالها الثقال لتتشرف بالجهاد.

وآفة الاعتماد على الحكومة آفة مخوفة على الأمة المصرية، ويجب النص على هذه الآفة بذكر بعض الشواهد، عسانا نزهد فيما استمرأناه من التواكل البغيض.

التعليم كله مُلقى على كاهل الحكومة، وما فكر فردٌ أو جماعة في إنشاء مدرسة إلا على نية التبعية لوزارة المعارف، بأي صورة من صور التبعية.

وقد نهضت الأمة يومًا فأنشأت الجامعة، ولكن النهوض ثقل عليها فأسلمتها إلى الحكومة!

وأنشأت الجمعية الخيرية الإسلامية بضع مدارس، ثم أسلمتها إلى الحكومة.

ومنذ أعوام تعرضت مدرسة الأقباط بالقاهرة لمتاعب مالية، فخذلها أعيان الأقباط ولم ينجدها غير الحكومة.

فما هذا الفقر المدقع في العزائم والنفوس؟

أتكون أحوال التعليم كهذه الأحوال في البلاد الإنجليزية والأمريكية؟

وكيف والتعليم في تلك البلاد ترجع أكثر شئونه إلى هيئات مستقلة عن الحكومة كل الاستقلال أو بعض الاستقلال؟

واعتمادنا على الحكومة ظهر بصورة بشعة يوم خيف على «بنك مصر» من زعازع الحرب، فالحكومة هي التي تقدمت لحماية البنك، وبذلك ضاعت فرصة على أغنياء الأمة، وأي فرصة؟

لقد كان في مقدور الأغنياء أن يتعاونوا على رعاية تلك المؤسسة القومية، وهي رعاية مضمونة الربح، وكان من المؤكد أن تدر عليهم الخيرات في أعوام الحرب، ولكنهم تهاونوا تهاون العاجزين عن إدراك ما ينتظر من المنافع وتركوا الحكومة تدبر الأمر كما تريد.

وآفة الاعتماد على الحكومة زلزلت الثقة بالكفاية الفردية، وهل يتهالك المتعلمون على وظائف الحكومة إلا ليقال: إنهم وصلوا إلى شيء، في بلد يرى الوظيفة كل شيء؟

كل ما رأيناه من جميع النواحي أهون من الناحية التي تساق في مناظرة هذا المساء، فإن ناسًا يرجون أن تنوب الحكومة عن الأمة في الإصلاح الاجتماعي، وقد يرجون غدًا أو بعد غد أن توزع الإصلاحات الاجتماعية والفردية في بطاقات؛ وقد يرجون أيضًا أن تنوب الحكومة عنهم في اختيار ألوان الطعام والشراب!

الأساس الذي أراه لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب وروح الحكومة ممثلة في كل فرد، فيكون الرجل حاكمًا ومحكومًا في آن، حاكمًا لهواه ومحكومًا لنهاه، ثم تتلاقى قوى الأفراد كما تتلاقى القطرات الطاهرة من الغيوث فتخلق نهرًا في مثل عظمة النيل.

أنا أنتظر اليوم الذي يقال فيه على سبيل التفكه بحوادث التاريخ: كان في الدنيا حكومات وبرلمانات، وكانت الدنيا في بعض العهود ميادين قتال بين الآراء والأهواء.

فإن لم نر ذلك اليوم، وهو في رأيي قريب، فلنخلقه في صدورنا، ولنكن رجالًا يستفتون ضمائرهم في جميع الشئون، ولا يخافون الناس؛ لأن النزاهة الروحية تخلق الأمان والاطمئنان، ولأن الصدق يحمي صاحبه من عدوان الباغين والظالمين.

وسبحان من لو شاء لحق هذا الرجاء.

***

أحلام العام الجديد

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية «استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف»، فتوكل على الله وقرر أن «الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء؛ أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملًا، مقسطًا أو غير مقسط». وبهذا ظهر «امتياز» الصديق القديم على الصديق الجديد!

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع مواد الطباعة، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف.

وما ظنُكم بزمان لا يبرع شعراؤه في غير الحديث عن «الرغيف»، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات؟

ما ظنُكم بزمان يعد فيه الحديث عن أحلام القلوب ضربًا من الفُضول؟

إن هذه المحنة العاتية هي الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية، فيها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان.

أيكون الكلام عن «الرغيف» تودّدًا إلى أهل البطون، وهم ألوف أو ملايين؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يَهْتَبِلُها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء؟

إن كان ذلك فأين تصون الأديب عن الكلام المبذول؟

سمعت -بل علمت- أن مدرسًا في «قنا» أرسل إلى جلالة الملك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون؟

وإذا استجاز «المدرس» أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف، وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس، فماذا يصنع «الفلاح» أو «الصانع» وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمني ما كنت أجهل، فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لا أعرف، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال، واكتفيت بما تيسر من الخضروات، بغض النظر عن اللحم الذي آكله باسم النقد الأدبي، وهو لحم غاب اسمه عن «دولة الحاكم العسكري» فلم يفرض على من ينتاشه أي عقاب!

ما تهمني أزمة الرغيف، وإنما تهمني أزمة القلب.

ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف؛ لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود.

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغني عن الماء، ومن أجل هذا سُميت جازية، و«جازية» اسم من أسماء الملاح في هذه البلاد، وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنى ملفوف.

فإذا فقدت الظبية العشب، فكيف تعيش وبه عنيت عن الماء؟

لن أنسى أبدًا سخرية «فاجيه» من «أفلاطون»، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي، ومن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية، فأنا أسجل كل ما يعتلج في صدري قبل أن يضيع، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء، بلا تقيد بالمكان والزمان!

وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه، فقد سخر من تسامي الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون. أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس.

نحن، رجال القلم، أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدر من آلام وآمال.

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون في حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل: فلا يعرفون ما يعاني الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب...

ولم نكن كأولئك، فنحن قوم نعيش للشعب وفي صحبة الشعب، ولنا فيه أعمام وأخوال، ولن نتجنى عليه بأي حال.

ونحن مع هذا معرضون لدسائس سود، ومن الواجب أن نبدد تلك الدسائس، بلا تسويف، تمهيدًا للوزارة التي سنؤلفها في العام الجديد.

قيل: إن الزيات متأنق في الأسلوب، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء؛ وأقول: إن هذه النزعة تنفع في المزاوجة بين الطبقات والأحزاب، حين يمسي الزيات وهو رئيس الوزراء.

وقيل: إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب في الآفاق الفكرية، وأقول: إنه أصلح الأدباء لتولي وزارة الخارجية.

وقيل: إن أحمد أمين لا يجيد الكلام في غير البحث المطروق، وأقول: إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب.

وقيل: إن المازني أول أديب حج بيت الله في غير موسم الحج، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر في الحجاز، وإن قال في صلاة «زكي باشا» ما قال.

وقيل: إن توفيق الحكيم يقدس «السيدة زينب» فهو إذن وزير الأوقاف.

وقيل: إن طه حسين لم يُجد في «هامش السيرة» غير الحديث عن «الراهب» فهو إذن وزيرنا في بلد النجاشي.

وقيل: إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا في وصف الطبقات الشعبية، فهو إذن وزير الشئون الاجتماعية.

ولا موجب للحديث عن الأدباء الغدرة من أمثال: عبد القوي أحمد، ومحمد هيكل، ومصطفى عبد الرازق؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ!

بقي مكاني في الوزارة المنشودة، فما عسى أن يكون؟

هل أختار وزارة المعارف؟

وكيف وهي وزارة متعبة، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشي على الشوك؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلَف ما بنى السلف، وأنا أكره التقلبات الكثيرة، وأبغض الضجيج المفتعَل، والصياح المصنوع.

يضاف إلى ذلك أني نشرت مقالات تفوق العد والإحصاء في شئون التربية والتعليم، ومن الجائز أن يطالبني الجمهور بتحقيق ما اقترحت في تلك المقالات، وهنالك الخطر كل الخطر، إلا أن أروض نفسي منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات.

هل أختار وزارة الداخلية؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب، ويثور على الاحتكار والمحتكرين.

إن توليت وزارة الداخلية -وهذا أمرٌ قريب- فسأفرض على رجال الحكومة في مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشًا يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام، وهل يهدد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين، وإرشاد المرشدين، فقد ظهر أن في الدنيا قلوبًا لا يقوِّمها وعظٌ ولا إرشاد. لن أنتظر غير حكم العدل، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة في زوايا البيوت؛ بيوت الأغنياء والفقراء، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون في الفقر تزوير وافتعال «ولم يكن المصريون كذلك في الأيام الحالية، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين».

إن توليت وزارة الداخلية -ويجب أن أتولاها- فسأحرم العُمَدَ نعمة الثرثرة فوق المصاطب، وسأحولهم إلى جنود نافعين، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شيء؛ ولكنهم يكتمون ما يعلمون، فإن طووا عني ما يجب أن أعرف فسأقضي فيهم بالعدل، وهم يفهمون جيدًا خطر العدل.

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات في مثل هذه البلاد؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعي إلى الجهاد؟

اللعب في أمثال هذه الأيام لا يليق، ومن اللعب القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع.

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتي يوم أتولى وزارة الداخلية، فسيقول السفهاء من الناس: إني خليفة الحجاج، وسيتخذون من شراستي دليلًا على أن المواهب الأدبية تنطوي على جحيم من الطغيان المكبوت.

وما خوفي من القال والقيل وأنا في غنى عن رضا الناس، ولن أتقدم يومًا لخوض معركة انتخابية؟

إنَّ رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة في السنين العجاف. وهل يشقى أحدٌ في سبيل الأمة كما نشقى؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف.

الوزراء في الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا في أندر الأحيان؛ لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين، وفي الناخبين خلائق لا تعطي أصواتها إلا لغاية مطوية، هي السكوت عن آثامها الثقال.

ولن أكون وزيرًا برلمانيًا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدم على إعزاز شريعة العدل.

سأكون بإذن الله وزيرًا يُختار لغرض واضح صريح: هو القضاء على البغي والفساد، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات.

وقد فكرت في مصير البرلمان الحاضر، وهو برلمان طال حوله الخلاف، ثم صح الرأي على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى

حين، فما يتسع وقتي للنظر في شئون تضر أكثر مما تنفع. وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد؟ - «إنما أُسأل أمام ضميري لا أمام البرلمان».

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء.

لن يقول النحاس باشا: «أنا أول من أنذر بأزمة التموين» فسأسوقه سوقًا إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس.

ولن يقول الدكتور ماهر باشا: «أنا أول من تأهب للحرب»؛ فسأجره جرًّا إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء!

سأغيِّر من أخلاق الناس، إن دُعيت إلى ولاية الحكم في هذه الأيام، وليس ذلك بالأمر البعيد، فقد جُربت جميع القُوى السياسية، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية، وهي أقوى من الزمان.

أمَّا بعد! فهذا حُلمٌ من أحلام العام الجديد، ولكل عام أحلام.

هو لفتة روحية ستؤتي ثمارها بعد حين، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إقرار العدل، وما كانوا في الحاضر والماضي إلا موازين.

دعونا كم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا؛ ونهيناكم ألف مرة عن تناسي السلطة الأدبية فلم تنتهوا. فهل جازينا كم صدًّا بصد، وإغضاء بإغضاء؟

لا، والله، وإنما مضينا على السجية الكريمة، فأوقدنا في صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخي، فما كان في الأمة من خير فهو من صنع أقلامنا، وما كان في الأمة من شر فهو من جناية الراغبين في المهارة والاستعلاء.

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ، ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض.

أتريدون الدليل؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجيد المستطاب، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد.

وأنتم تُضْفُون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب، وقد تسندون بعض المناصب إلى من لا يُزكيه غير رضاكم عن أسلوبه في حفلات الاستقبال.

الأدباء هم أقدر الرجال في مصر على عصيان الأهواء.

ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات في كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأي، ونرحب بجميع المتاعب في سبيل تلك الغاية العالية، فأين من يصنع بعض الذي نصنع؟ وأين الذي يعاني في سبيل المبادئ السامية بعض ما نعاني؟

لو سخرنا أقلامنا في سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق في وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون.

إلى أقلامنا يرجع الرأي في سياسة هذه البلاد، وإن بعدنا صوريًّا عن المناصب الوزارية والبرلمانية.... لكل وطن روح، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ.

***

أين الرسالة؟

حدثت قُرائي مرة أني رفضت أن تُهْدى إليَّ الرسالة؛ لأني أجد أننا في اشترائها من السوق، كأني أوجه تحية إلى صاحبها الصديق. وبالأمس انقبض صدري حين حدثني باعة الجرائد أنها احتجبت لعدم وجود الورق، ثم لطف الله فعرفت بعد ذلك أنها اكتفت بطبع كمية بقدر عدد المشتركين، إلى أن يأذن الله بالورق الذي يساعد على أن تغمر السوق من جديد. ليتني اشتركت في الرسالة!

هل خطر في بال من تهمهم سمعة مصر الأدبية في الشرق خاطر احتجاب الرسالة عن الأسواق؟

هل آذاهم أن يقال: إن مجلة مثل الرسالة لا تجد قوتها من الورق مع أنه قوت مبذول لمنافع قد تضر بسمعة مصر في أنظار من لا يعرفون غير الجد الصريح؟

ليست الأزمة أزمة الورق، فهو موجود، وإنما الأزمة تنحصر في انعدام التعاون والتساند، هي أزمة الأدب اليتيم الذي لا يسأل عنه أحد حين يغيب!

هل صلصل الهتاف في بيت الأستاذ الزيات من إحدى الجهات للسؤال عن الأسباب التي حجبت الرسالة عن الأسواق؟

أكان يجب ألا تقتصر الرسالة على الأدب الصرف لتجد من يسأل عنها حين تحتجب؟

سنعرف طاقة الأدب في اجتياز هذه المحنة العاتية. وإن اقتضى الأمر أن نرجو الحكومة أن تسمح بإذاعة محصول الرسالة عن طريق المذياع فسنفعل.

أيها الأدب!

أنا غير خائف على مصيرك، وهل كانت هذه أول محنة صارعتها وصارعتك حتى أخاف عليك؟

لا تصدق أيها الأدب أننا سنفرِّط في استقلالك بأي ثمن، ولا تتوهم أننا سنتخلى عنك بما يسمونه الظروف أو الصروف.

سنعرفك في أيام الشدة، كما عرفتنا في أيام الرخاء، والله وليُّ الصابرين.

***

الحديث ذو شجون[1]

أزمة المجلات الأدبية:

إنشاء مجلة في مصر أو في غير مصر عمل لا يعرفه إلا من يعانيه، وتزيد متاعب هذا العمل إذا أريد أن تكون المجلة مقصورة على الأدب الصِّرف، بحيث لا تكون لها موارد غير عواطف القراء، والقارئ لا يدفع قرشًا في مجلة أدبية إلا إذا وثق بأنه من الغانمين، ولا تظفر المجلة بثقة القارئ إلا بعد جهود تفر من حملها الجبال.

وقد كنت فيما سلف من الأيام أثني على حصافة الأستاذ الزيات، كنت أقول: إن العقل هداه إلى أن الضمير المصري لا بدَّ له من مجلة لا تهتم بغير الأدب الصِّرف، ولا تقبل مواجهة الجمهور بغير الفكر المشرق في الأسلوب الجميل.

ثم جدَّت شواهد أقنعتني بأن روح التضحية هو الأصل في إنشاء المجلة الأدبية، وإن كان الله عزَّ شأنه تفضل فجعل «الرسالة» مصدر خير لصديقنا الزيات، فقد قيل -ولله الحمد-: إنها صيرته من الأغنياء بدليل سيطرته على بعض الشواطئ من «بحر شبين» وهو النهر الذي يسقي سنتريس!

فيا ساكني أكناف دجلة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب

يكون أُجاجًا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تَلقَّى طيبكم فيطيبُ

(١) مجلة الرسالة: العدد ٤٧٠ بتاريخ ٤٢/٧/٦.

ومع هذا فأنا أشعر بقيمة التضحية حين أكتفي بالكتابة في الشئون الأدبية، ولتفصيل هذه اللمحة أذكر النكتة الآتية:

فلانٌ رجلٌ كريمٌ جدًّا، وهو حين يراني يطيب له أن يحييني فيقول: «لقد قرأت مقالك في مجلة الرسالة».

ولكن هذا الرجل الكريم لا يُلقي هذه التحية إلا بلهجة التصدُّق!

فهل يكون الحال كذلك لو كنت أكتب في الشئون السياسية وأستبيح إيذاء الناس بغير حساب، كما يصنع بعض الكتاب السياسيين؟

الصحافة الأدبية مسيَّرة بالضمير الأدبي، وهو يأبى على أصحابه أن يتزيدوا على الناس طاعة للأهواء، أو طاعة للأحزاب، فما خوف الناس منا ونحن لا نملك غير الصدق، ولا نصاول حين نصاول إلا في حدود الأدب والذوق؟

المجلة السياسية تصل إلى أيدي الوزراء قبل أن تصل إلى أيدي الجمهور؛ لأن الوزراء يحبون أن يعرفوا ما يقال فيهم بحق أو بغير حق، فهل تلقى منهم المجلة الأدبية بعض هذا الاهتمام الطريف؟ وكيف وهم من ظلم المجلات الأدبية في أمان؟

ثم أثب إلى الغرض من هذه الكلمة فأقول:

أين معالي وزير التموين؟

لقد قرأت خطبته في الرد على الاستجواب المعروف، فرأيته تحدث عن جميع ضروب التموين، إلا الورق، ورق المجلات الأدبية، أما ورق

الجرائد اليومية والمجلات السياسية، فالمفهوم بداهة أن الحكومة ستعرف ما تصنع إذا بخل به صنائع الجشع من الوراقين!

أنا لا أعرف وزير التموين معرفة شخصية حتى أحكم له أو عليه؛ ولكني أعرفه معرفة معنوية، وهذه المعرفة توجب أن أذكره بالواجب في رعاية أقوات العقول والأفهام والقلوب، فمن العقوق لمصر أن يقال: إنها لم تمتحن إلا بأزمة الرغيف، مع أن مصر أقدم أمة كان أكبر زادها العلم والأدب والبيان.

أكتب هذا وأنا أخشى أن يقال بعد أسابيع: إن مجلة (الرسالة) عجزت عن الوصول إلى قُوتها من الورق... وأي قوت؟ ومن يعرف أن مجلة (الرسالة) لا تملك تزويد الأسواق الأدبية بما تحتاج إليه تلك الأسواق؟ من يعرف أن التضامن الصحفي أصبح في حكم العدم، وأن من العسير أن تقول أية مجلة: إن من حقها أن تعتمد على أريحية «نقيب الصحفيين»، وعنده -فيما سمعت- أكبر كمية من الورق المخزون؟

إن مجلة مثل (الرسالة) تقدم للجمهور شواغل نبيلة بالحديث عن العلوم والآداب والفنون، ولو التفتت الحكومة لأدركت أن انتشار مثل هذه المجلة يريحها كثيرًا -أو قليلًا- من شيوع الأكاذيب والأراجيف، فهل من الإسراف أن تطالب الحكومة بإعانة أمثال هذه المجلة على الظفر بحاجتها من الورق، لتنهض الحجة على أن متاعب هذه الأيام لا تُنسي الحكومة واجبها في رعاية الأذواق والعقول؟

سأنظر كيف يجيب وزير التموين، إن تفضل بالجواب؟

***